

الحضارة الإسلامية

وانفتاحها على حضارات الأمم

أ. د. احمد عبد الرحيم السايح (*)

مفهوم كلمة "الحضارة" مفهوم تطور مع الزمن، لاسيما في تاريخ الحياة العربية، ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر، منذ كانت بادية ومنذ كان حضرا.

لكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) بل إن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة بطريقة علمية.

ويرى إن الحضارة هي النمط من الحياة المستقرة والذي يناقض البداوة ويضفي على حياة أصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية^(١).

والحضارة في فكره طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياسة المجتمعات المختلفة وإنها غاية العمران^(٢).

يقول: "إن الحضارة في الأمصار من قبل الدولة ، وإنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ، إنها أحول زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه ،وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، ويقع

(*) أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر .

فيها عند كثرة التفتن في أنواعها وأصنافها ، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه ، والمهرة عليه^(٣) .

وبالبحث يجد إن مفهوم الحضارة الإسلامية في العصور المتأخرة قد امتد إلى ألوان من المعنى هي أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي البيئة العربية، وفي انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية إلى الحضر.

إن لفظ الحضارة في مفهومه العام والحديث بصفة خاصة ، قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ في مفهومه اللغوي التقليدي ، ولذا جاء في المعاجم الحديثة أن الحضارة هي الرقي العلمي ، والفني ، والأدبي ، والاجتماعي ، والاقتصادي في الحضر .

وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هي: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية.

ولهذا كانت الحضارة هي الخطة العريضة كما وكيفاً التي يسير فيها تاريخ أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة^(٤) .

فالحضارة بكل بساطة ، معناها : بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تميز النوع الانساني وتحقيق التقدم من أى نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي .

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم ، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم^(٥) .

والحضارة باختصار شديد: هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ والتي تبقى في المجتمع على مر الأيام دليلا على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيرا عن روح هذا المجتمع والشعب الذي يمثلها.

ولاشك إن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تنسجم فيها تلك المعنويات وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات مشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومي^(٦).

لقد عرف العلماء الحضارة تعريفات متباينة ، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة ، ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة ، كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفا ذكره العلامة الفرنسي "جورج باست يد" جاء فيه : إن الحضارة هي التدخل الانساني الإيجابي لمواجهة ضروريات الطبيعة ، تجاوبا من إرادة التحرر في الإنسان ، وتحقيقا لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته وإنقاصا للعناء البشري^(٧) .

فالسلوك الانساني الذي ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون من المثير والدافع والحافز للإنسان . كي يتغلب على ما يواجهه ، ومن ذلك عوامل في طبيعة الإنسان نفسه مثل حاجاته للطعام، والشراب ، والدفع، والاستقرار ، والأمن ، وهناك منافسة الإنسان الآخر على ذلك ، ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبيه هذه الحاجات^(٨) .

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية، في جوانبها المتعددة المتقابلة المتكاملة جسمية، وعقلية، ونفسية، وروحية.

والسلوك الحضارى هو : جواب الإنسان على التحدي الموجه له ،
تحدى الطبيعة المادية من جهة ، وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى ، وتحدى
الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة .

ويأتي هذا الجواب الإنسانى على التحدي في صور نشاط متعدد
الجوانب ، كما تشمل أيضا صور الإنتاج المادي من عمائر وطرق وجسور
وقناطر وغيرها .

ومن مجالات الحضارة : العقائد والعوائد والأدب الشعبي وأدب
الخاصة أو الأدب الرفيع والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية،
كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل وأساليب المأكل
والمشرب والزينة والترفية ^(٩) .

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى ،
وغالبا ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشتة وتفاعله مع البيئة ، ولذا كان
من الطبيعي إن تختلف كل حضارة في مظاهرها ، وفي عناصرها ، وفي
أسلوبها ، ولا سيما إذا تعايشت في جهات متقاربة ^(١٠) .

والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها في
لاحقها ، ويتأثر حاضرها بماضيها ، وينتفع بعضها من بعض ^(١١) .

ولقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان ، وانتفعت من
بعضها انتفاعا أدى إلى تطورها وتقدمها .

وتشكل الحضارة مجموع الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع أو
لمجموعة من المجتمعات، وهى تتجاوز الثقافة وتغلفها، وهذه الصفات تمثل
مجموع الحلول التي أوجدتها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، وتتدمج بشكل
عام، في جو واسع جدا، ومكان جغرافي طويل جدا من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية والتقنية ، والمفاهيم لحل جميع المشاكل التي يطرحها وجود هذه المجموعة : الاتصالات ، وإصلاح وتوزيع الاراضى، واستثمار الثروات ، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية ، والدينية .

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب، الذي ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية، وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه، ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم من أجل الصفات الجمالية في الحضارة.

والباحث يجد أن الحضارات والثقافات المختلفة ، تتفاعل مع بعضها فتنتج للإنسان ما يشبع حاجاته الفكرية والمادية . وبذا فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور، تكون كلا متماسكا، يترابط بنيانه العضوي كحلقات السلسلة الواحدة، التي لا تنفصم الواحدة عن الأخرى.

ولا يمكن إن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى ، أو أنها لم تتفاعل معها .

ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى : تأخذ ما يتفق مع البنيان العقلي والفكري للأمة ، وتعطى ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال ، فإن هذا التفسير اقرب إلى فهم روح الفكر والنشاط الإنسانى المتصل الذي بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض^(١٢) .

ولا يخفى أن النشاط العقلي، والإنتاج الحضاري، لا بد إن يستند إلى أدلة ملموسة. والأدلة في هذه الحالة إما مادية مثل: النقوش والمعابد والآثار والمنشآت ، وكل شكل الإنتاج التكنولوجى ، وإما فكرية مثل : الوثائق والمؤلفات والكتب والنظريات العلمية والآراء المدونة كتابة .

ومما يحسن إن نؤكد عليه أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض . قال تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

وقد فضل الله الانسان وكرمه كما وضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠]

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة ، فهي حماية إلهية للإنسان ، تتطوي على احترام حرية ، وعقلة ، وفكره ، وإرادته .

وهذه الكرامة تعنى في النهاية الحرية الحقيقية . وهي تلك الحرية الواعية المسئولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم ، وجعله مكلفا ومسئولا . فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣] .

والتفكير الذي تنص عليه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي إن يغيب عن الأذهان (١٣) .

وإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون ، فلا يجوز له إن يقف منه موقفا غير مبال ، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفا إيجابيا . وإيجابيته تتمثل في درسه ، والنظر فيه ، للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير .

والاستفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون لا تكون إلا بالعلم والدرس والفهم ، والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدي إلى الرقي المادي وفي الوقت نفسه إلى الرقي الروحي والحضاري (١٤) .

وبناء على هذا المفهوم ، فإن المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر . والمجتمع المتحضر هو الذي تكون القيم الإنسانية ، والأخلاق الإنسانية التي يقوم عليها هي السائدة فيه ، وهذه القيم هي التي تنمى خصائص إنسانية الإنسان وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات .

وهذه القيم إنما هي قيم إنسانية ذات ميزان ثابت . وهي مقررّة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت . وما على الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها حضرية كانت أم بدوية ، صناعية كانت أم زراعية ، فالمهم في كل الأحوال هو الارتقاء صعوداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التي تؤدي إلى التخلف .

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم ، وبهذه الأخلاق ، في كل مكان وفي كل بيئة ، أما إشكالاتها وصورها المادية ، فهي كثيرة ، ومتنوعة لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً ، وتنميتها وفقاً لميزان الله الثابت وقيم الإنسان المقرر في شريعة الله (١٥) .

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع ، وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات وقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها .

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية فإن التخلف الحقيقي في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى

باغية للتدمير والتسلط وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غيرا ، ولابد من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية وفي خدمة الإنسان دونبغي أو ظلم وتحكم أو إبادة .

إن مهمة العلم في المفهوم المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها ، بل التلطف مع الطبيعة والجد في اكتشاف قوانين الله فيها ^(١٦).

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة فإن هذه الحضارة التي دعا إليها الإسلام تتميز بأنها مفتحة الحدود الفكرية والنفسية والمادية. والنصوص الإسلامية التي تعلن هذه الحقائق كثيرة . قال رسول الله ﷺ : "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها" ^(١٧) .

ويقول ابن رشد : "إن إلفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظرنا في الموجودات ، واعتبارا لها ، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم. فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم" ^(١٨) .

وسيرا في ضوء هذا المنهج الإسلامي وجدنا العصور الذهبية للمسلمين ، تفتح صدورهم لامتصاص المعرفة الإنسانية المادية التي خلفتها في الأمم والشعوب حضارات سالفة ^(١٩)

وعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل فإن تجارب الإنسانية في الوسائل والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة في أحيان كثيرة للاقتباس - مع التطوير - والتمثيل والاستلهام .

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتفعت إنها تمتزج لتكون معها صيغة جوهريّة تختلف من تراث إلى

آخر. وهذه العناصر الخارجية تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود. والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة . فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء والاستعارة ليست عارا وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة لا خطر فيها ولا خوف منها لأنها تعمل على تطوير الحضارات (٢٠).

وتطور الحضارة والتقاؤها هو معلم التاريخ الحضاري للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقي هو قدر لا سبيل إلى مغالبتة أو تجنبه لكنه دائما وابدأ وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام تفتح له الأبواب والنوافذ ، بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعي في تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون في حذر - قبل استلهامه وتمثله ، ويعرضونه على معايير حضارتهم ، لفرز ما يقبل منه ويتمثل من ذلك الذي يرفضونه لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتيادية (٢١) .

والمدرک لإبعاد لقاء الحضارات وتفاعلها يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا ضد أى تفتح عقلي إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت ، كما كانت بين أيديهم نظرة كونيه شاملة أمدهم بها القرآن فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي وتحرك عملي وعلمي .

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية ، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين لقاء مودة أو لقاء خصام (٢٢).

إن الدولة الإسلامية الجديدة التي عملت على نشر الإسلام في الممالك المختلفة والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارة إلا لكي تعطي . إنها لم تقبل التراث الفكري وغير اليوناني ، إلا لكي تهضمه بعقليتها الجديدة وتتمثل بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ، ولكل أصوله تاريخها وخصبها وترده إضعافا مضاعفة .

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان والهنود وأصحاب الحضارات القديم يغترفون منها ما كان في وسعهم أن يغترفوا ، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديد (٢٣) .

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديم والمذاهب والأفكار ويستعينون بها في عملية البناء كان رائدهم في ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها و"الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها" .

لقد اخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة ، وهذا حسبهم أنهم لم يقدموا على النقل والاهتباس للتجمل والزينة وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة بل لبناء الذات واستكمال أسباب الحياة .

لقد كان المسلمون ينظرون في كل شيء ويبحثون في كل فج ، ويستفيدون بكل حديث وقديم ، وينقبون عن كل علم ، ويسيروا وراء كل حكمة ، ويأخذون العبرة من الماضي وينطلقون للمستقبل ، يستفيدون من القديم ويبينون الجديد ، وكان لهم جولات وجولات في كل ناحية من نواحي الحياة في العلم وفي الحكمة وفي الأخلاق وفي الفلسفة وفي الطب ، وفي الهندسة ، وفي الجغرافيا ، وفي الفلك ، وفي الصناعة ، وفي الكيمياء ، وفي الصيدلة ، وفي الزراعة ، وفي التاريخ ، وفي القصص ، وفي اللغة ، وفي الحيوان ، وفي الفيزياء ، وفي الأحجار ، وفي البحار ، والمعادن (٢٤) .

ولم يدخر المسلمون جهداً في البحث عن تراث الأمم السابقة ، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على اليونانية القديمة ، والفارسية ، والهندية وغيرها من الثقافات التي نما إلى علمهم أنها موجودة في أى صقع أو قطر (٢٥) .

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالَم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً باللغة العربية ، فأدى ذلك إلى تطور الحضارة وقيام مدارس الفلسفة والعلوم والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة التي ورثها المسلمون عن الشعوب ، ذات الحضارة العريقة (٢٦) .

وليس هناك شك في أن الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية ودخول الفرس بموارثهم الحضارية الغنية في إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضاري واسع وعميق وخلّاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامي .

لقد فتحت فارس على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية : النيل ، ودجلة والفرات . ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبني النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية والذي كان يسمى "وضائع كسرى" وظل سائداً ومعمولاً به حتى في ظل الدولة العباسية .

فأنت ترى أنه في عهد عمر بن الخطاب ، ثم استلهم خبرة وتجربة حضاريه فارسيه في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية (٢٧) .

وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقي ، كانت ذات ميراث بيزنطي استفادت منها حضارة الإسلام في "تدوين الدواوين" وهو خبرة إدارية بيزنطية^(٢٨) .

ولاشك إن تفاعلا حضاريا في مختلف العلوم والفنون قد أخذ دورة في محيط الحضارة الإسلامية من واقع التأثير بالتمازج والمخالطة.

ويكاد يكون معروفا أنه :ليس في الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية والمصرية والفينيقية والفارسية ، ثم أضافت إليها آثارا فنية رائعة ومذاهب فكرية مبتكرة ومبادئ خلقية سامية ، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره .

لاشك أن للعوامل التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية تأثيرا في تكوين الحضارات ولكن هذه الأسباب لا تكفى لتفسير ما تميزت بت حضارة اليونان من قوي الإبداع والابتكار.

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة ومحصولها أعرق تمحيص فحذفوا منها ما حذفوا واستبقوا منها ما استبقوا، لكن حضاراتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب، وإنما هي حضارة متميزة أطلقت حرية العقل وجاوزت حدود الزمان والمكان^(٢٩).

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية آخذين إياها من مصادرها الشرقية في البلاد التي فتحوها ، فترجموا تراث اليونان في الطب والكيمياء، والهندسة ، والرياضيات ، والميكانيكا "الحيل" ، والزراعة ، والمناظر والحساب والمنطق وغيرها من العلوم الطبيعية والعلمية والتجريبية.

يستطيع الدارسون للحضارة الإسلامية إن يدركوا في وضوح أن :

- الحضارة الإسلامية قد وصلت بين قيم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الأقدمين وما أضافت إليه من صنع توجيهاتها .
- انقذت العالم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهايار واضطراب واستعباد وظلم.
- كوّنت مجتمعاً جديداً يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بي المجتمع .
- أعطت الإنسانية ذخيرة حية من المعارف أفادت منها الغرب في حركات الإصلاحية ، واعتمد عليها العالم الإسلامي في صحوة الزاهرة وعودته للصادقة .
- وضعت بعض أصول المنهج العلمي الحديث .. كطريقة الشك عن الغزالي والتكامل الخلقى والسلوكي عند الحكيم الترمذي . كما فتحت آفاقاً جديدة في البحوث الإنسانية والدراسات الاجتماعية كفلسفة التاريخ عند عبد الرحمن ابن خلدون وعلم البصريات عند بن الهيثم وأبدأت مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد الخوارزمي وعمر الخيام .
- وقد ساعدت الحضارة الإسلامية بأدابها على نهضة الآداب في أوروبا وفتحت آفاقاً جديدة أمام شعراء الغرب وكتابه .
- ساعد خلفاء الحضارة الإسلامية وقادتها بأخلاقهم وسلوكهم وب نماذج المروءة والشرف والقيم التي تحلوا بها على إشاعة المثل الخلقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم أو في الحرب.
- والتفاعل الحضاري ضرورة إنسانية لا بد منها لقيام الحضارات وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

وإذا تأملنا في حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها - من وجهة نظرنا - محاصرة بين غربتين: غربة زمان وغربة مكان .

أما غربة الزمان فهي: بعد الأمة عن ماض حضاري مشرق لم تعد تربطه بها عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان فهي بعد الأمة عن واقع حضاري معاصر تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها .

ولذلك إذا كان لابد لهذه الأمة أن تعود إلى التفاعل الحضاري وتستفيد من حضارات الإنسانيه كان لابد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزماني والاغتراب المكاني وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارية الإسلامية وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر .

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين والعلم في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم ، وتسامح مستتير ، فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية في طريق حضاري^(٢٠) .

وإن التقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكر والتعاون والاحتكاك بين المجتمعات .

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا، ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي.

ويجدر بنا إن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء ولا التبعية الحضارية بمفيدة أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم .

ويكاد يكون مؤكداً أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها وغيرها مع حضارات في الرمان والمكان .

والنمو الحضاري إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى ، وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات وازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

الهوامش :

(١) انظر د. أحمد السايح ، أضواء حول الحضارة الإسلامية ، ص ١٧ ، ط ، دار اللواء، الرياض ، السعودية ، ١٤٠١هـ .

(٢) راجع ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٢١٠-٢١٣ ، ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٧م .

(٣) راجع المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥٦-٦٥٧ .

(٤) انظر د. أحمد السايح ، أضواء حول الحضارة الإسلامية ، ص ١٨ .

(٥) راجع البرت اشفيتسر ، فلسفة الحضارة ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ، ص ٥ ، ط ، دار الأندلس ، بيروت .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٧) راجع جورج باستيد ، كتاب المدنية ، ترجمة عادل العوا ، ص ١٢ ، ط ، دمشق .

(٨) انظر المصدر السابق ، ص ١١٧ ، وراجع د. محمد فتحي عثمان ، القيم الحضارية في رسالة الإسلام ، ص ١٦ .

(٩) انظر د. محمد فتحي عثمان ، القيم الحضارية في الإسلام ، ص ١٧ .

- (١٠) انظر الدكتور محمد المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص٢ ، ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- (١١) انظر د . أحمد السايح ، أضواء حول الحضارة الإسلامية ، ص ١٨ .
- (١٢) انظر د . ماهر عبد القادر ، المشكاة ، ص ١٦٦ ، ط ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ .
- (١٣) انظر د . محمود حمدي زقزوق ، دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ، ص ٩ ، ط ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- (١٤) راجع المصدر السابق .
- (١٥) انظر د . علي أحمد مذكور ، الثقافة والحضارة في التطور الإسلامي ، مجلة الدارة ، ع ع ص ٢٥ ، السنة ١٤ ، السعودية ١٤٠٩ هـ .
- (١٦) المصدر السابق .
- (١٧) رواه الترمذي وابن ماجه .
- (١٨) راجع ابن رشد ، فضل المقال ، ص ١٧ ، ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- (١٩) انظر عبد الرحمن الميداني ، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، ص ١٢٢ ، ط ، دار القلم ، دمشق ١٤٠٠ هـ .
- (٢٠) انظر د . محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربي ، ص ١٥٢ ، ط ، عويدات ، ١٩٨٢ م ، بيروت - فرنسا .
- (٢١) انظر د . محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، ص ٢٠٥ بتصرف ، ط ، مجمع البحوث الإسلامية ، الأزهر ، ١٩٨٨ م .
- (٢٢) عبد الرحمن الميداني ، أسس الحضارة ووسائلها ، ص ١٢٢ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٢٤) انظر د. توفيق الواعي ، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، ص ٣٨٩ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢٦) انظر د. محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربي ، ص ٢٢١ .

(٢٧) د. محمد عمارة ، الغزو الفكري ، وهم أم حقيقة ، ص ٢٠٦ .

(٢٨) د. أحمد السايح ، أضواء حول الحضارة الإسلامية ، ص ٨١ .

(٢٩) الدكتور جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص ٦٠ ، ط ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠ م .

(٣٠) د. محمود قمبر ، هدفية العلم في الإسلام ، حولية كلية التربية ، ع ٨ ص ٦٣ ، جامعة نصر ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٩ م .

المصادر والمراجع :

١. اشفييتسر ، البرت اشفييتسر ، فلسفة الحضارة ، ط ، دار الاندلس ، بيروت .
٢. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ط ، بيروت .
٣. باستيد ، جورج بستيد ، كتاب المدينة ، ط ، دمشق .
٤. زقزوق ، الدكتور محمود حمدي زقزوق ، دور الاسلام في تطور الفكر الاسلامي ، ط ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
٥. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، اضواء حول الثقافة الاسلامية ، ط ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٤ م ، القاهرة .
٦. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، الحوار الحضاري ضروره إنسانية ، بحث مستل - مجلة الدارة - السعودية .
٧. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، مستقبل الحضارة الاسلامية ، ملحق مجلة الازهر ١٩٨٧ م ، القاهرة .

٨. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، فلسفة الحضارة الاسلامية ، ط ، المجلس الاعلى للشنون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .
٩. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، اضواء حول الحضارة الاسلامية ، المجلس الاعلى للشنون الاسلامية القاهرة ، ١٩٨٩ م .
١٠. السايح ، الدكتور احمد عبد الرحيم السايح ، هذا هو الاسلام ، ط ، دار الثقافة ، الدوحة ، قطر .
١١. صليبا ، الدكتور جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
١٢. عثمان ، الدكتور محمد فتحى عثمان ، القيم الحضارية فى رسالة الاسلام ، ط ، الدار السعودية ، جدة ، ١٩٨٥ م .
١٣. عصفور ، الدكتور محمد المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ط ، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٧٩ م .
١٤. عمارة ، الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ط ، مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ١٩٨٨ م .
١٥. قمبر ، الدكتور محمود قمبر ، هدفة العلم بحث فى حولية كلية التربية ، ع ٨ جامعة قطر ١٤١١ هـ .
١٦. مرجبا ، الدكتور عبد الرحمن مرجبا ، اصالة الفكر العربي ، ط ، دار عويدات ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
١٧. مدكور ، الدكتور على احمد مدكور ، الثقافة والحضارة فى التصور الاسلامى ، مجلة الدارة ع ٤ ، السعودية ، ١٤٠٩ هـ .
١٨. الدكتور ماهر عبد القادر محمد ، كتاب المشكاة ، ط ، دار المعرفة الجماعية ١٩٨٥ م .
١٩. الميداني ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، ط ، دار القلم ، دمشق .
٢٠. الواعى ، الدكتور توفيق الواعى ، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر .